

## أدب الرحلة ومكانته في الثقافة الإسلامية (القسم الثاني)

د/ جيلالي صاري<sup>1\*</sup>

### إسهام الجزائر في أدب الرحلة

سنعرض، في هذا المجال، لمثالين مختلفين من حيث القيمة والتوجه، ويعود كلاهما إلى القرن الحادي عشر الهجري/ الثامن عشر ميلادي. إن الأمر يتعلق بسردين لرحلتين ويمثلان أهمية كبيرة لأنهما أضفيا على هذا النوع الأدبي طابعا آخر لاسيما وأن مؤلفيهما، أي ابن مسايب والورتيلاني، كانا يعبران عن واقعين اجتماعيين ثقافيين مختلفين حتى وإن كان متكاملين في جزائر تلك الأيام.

لقد كان ابن مسايب - أول "شاعر ملحن وموسيقي للمدينة"، كما يقول الحصار ابن علي (85-8 : 2003) El-Hassar Bénali - من أصل

---

\*. أستاذ بجامعة الجزائر.

1. ترجمة د. محمد هناد، مراجعة الأستاذ الهاشمي عثمان.

أندلسي عاش بتلمسان. لقد كان، بكل تأكيد، نموذجاً للغيور على حضريته وهو يعيش بمدينة كانت في السابق عاصمة للمغرب الأوسط على الرغم مما وقع لها من انحطاط في ما بعد بسبب فقدانها للذهب العابر للصحراء ومجيء إيالة الجزائر في زمن الحكم العثماني (1518).

أما الورتيلاني، فعلى العكس، فإن أصله من القبائل الصغرى، وهي منطقة من أجمل المناطق في الجزائر العميقة، منطقة ظلت شديدة التعلق بالتقوى والعبادة. لاشك أنه يمثل نموذج أولئك "المرابطين" الذين حظوا بالإجلال من طرف الناس، سواء في حياتهم أو بعد مماتهم.

#### رحلة ابن مسايب

تعتبر هذه الرحلة فريدة من نوعها، سواء من حيث الشكل أو المضمون. إنها، في الواقع، عبارة عن قصيدة من الشعر الملحون تصف باختصار، لكن بدقة، مختلف المراحل التي قطعها صاحبها. لذلك، وبالإضافة إلى الإشارات المتعلقة بأهم المحطات، نجد الأمر يتعلق فيها أساساً بالتقوى وعبادة الله (انظر النص في الملحق). ثم إن العنوان نفسه يبين ذلك بكل وضوح إذ يشير إلى القصد من الرحلة ويذكر صراحة مكان الانطلاق والمكان الذي يقصد إليه بالضرورة، أي "المسالك من تلمسان إلى مكة (انظر ابن شنب 261-282 : Bencheneb, 1900).

في الحقيقة، لقد جاء ذلك متفقاً مع مسيرة المؤلف ذاتها وهو ذلك الذي كان واحداً من أشهر شعراء الملحنون بعاصمة المغرب الأوسط القديمة، الوريثة الغيورة للتراث الموسيقي العربي الإسلامي الذي عرفته الأندلس من قبل. لقد كان ابن مسايب، بكل تأكيد، شاعر ملحن موهوباً<sup>1</sup> تميز بـ "أسلوبه السهل الممتنع" كما يقول ابن شنب (المرجع المذكور، ص. 261).

لقد كرس ابن مسايب آخر حياته للتقوى والتقيد التام بتعاليم الدين الإسلامي عملاً بما يتمناه كل مؤمن يبتغي مرضاة الله ورحمته. وعليه، فإن الرحلة التي قام بها وسرد وقائعها جاءت بفضل مناسبة الحج إلى البقاع المقدسة حتى وإن اختلفت عنها كثيراً من حيث الشكل. إن الغاية من الرحلة تبدو بكل وضوح في مقدمة القصيدة إذ نجد صاحبها يركز على الهدف الواجب الوصول إليه، ألا وهي زيارة البقاع المقدسة والتضرع فيها إلى الله حيث يقول: "أيتها اليمامة انحي نحو الطيبة [أي المدينة المنورة] وسلمي على المقيم بها".

نلاحظ نفس الشيء بالنسبة إلى الأبيات الأربعة الموالية في ما يخص التركيز على الغاية من الرحلة ألا وهو الحج. بعد ذلك، يأتي سرد للمحطات التي عبرها الحاج في طريقه. وقد جرت العادة أن يقع الانطلاق بالنسبة إلى التلمسانيين من ضريح المتصوف الأندلسي

---

1. تجدر الإشارة هنا إلى مؤلف آخر معاصر لابن مسايب، ألا هو محمد ابن تريكي الذي نظم قصيدة قص فيها رحلته من تلمسان إلى المدينة المنورة. إلا أنها تبقى بعيدة عن مستوى الشهرة التي بلغت قصيدة ابن مسايب حتى وإن وجدنا اختصار (El-Hassar, 2003 : 81-83) يلح على براعتها.

الشهير، سيدي بومدين (520-594هـ / 1126-1197م)، الكائن بالقرب من الجامع الكبير الذي يحمل اسمه (تم تشييده سنة 1333) والمدرسة التي علم بها المؤرخ ابن خلدون.

يذكر ابن مسايب عددا من المحطات التي مر بها انطلاقا من مدينته إلى الحدود الجزائرية التونسية، وهي معروفة جيدا. فقد مر بسهل الشلف ثم مدينة الجزائر التي كانت محطة لا بد منها بالنظر إلى سمعة وليها الصالح سيدي عبد الرحمان الثعالبي (786-873هـ / 1384-1468م). يقول :

"من ليلة الخميس إلى يوم الجمعة، زر مقام المعلم [أي سيدي عبد الرحمان] ؛

أرسلك إلى هناك، وإذا أنصت إلي، ثبّت في ذاكرتك صورة المباني [أي مباني المدينة] وستتعرف على الدار وستعود إليها".

أما في ما يخص باقي المحطات، فلم يهتم بها، وربما كانت مدينة تونس المحطة الوحيدة التي لفتت انتباهه من ذلك نجده، بالإضافة إلى الولي الصالح لكافة البحارة التونسيين، يورد ذكر ابن عرفة (716-803هـ / 1366-1401م)، واحد من أشهر فقهاء المذهب المالكي الحفصي، والذي يقر له المغاربة بالفضل في كتابة مؤلفه المعروف بـ "الحدود" بالنظر إلى الصرامة والدقة اللتين اعتمدهما فيه.

بعد ذلك لم يرد إلا ذكر محلة مخضرة قرب طرابلس ووليها الصالح المعروف بالشيخ الزروق، وكان فقيها مشهورا يوجد قبره بمسراته، قرية

مرفئية شرقي مدينة طرابلس. ثم يذكر بعدها برقة، آخر محطة مخضرة وتوجد بالجبل الأخضر، أصعب المحطات التي تخشاها القوافل حيث يورد ذكرا لكثير من الأخطار بها، تماما مثل ما فعل ابن بلده الورتيلاني، ويصفها قائلا إنها محطة "لا يستطيع أحد أن يعبرها".

أما في ما يخص القاهرة، فإنه وجد أنها تستحق التوقف فيها لليلة في حوض مركزها التاريخي بالقرب من مسجد الحسين قبالة جامع الأزهر. ثم إن هذا المكان هو الذي كانت تشد فيه الرحال ويقام فيها حفل تسليم بردة الكعبة إلى قافلة الحجيج. إنه حفل بهي تشييع فيه الحشود القافلة المتوجهة نحو البقاع المقدسة.

بعد ذلك تتضح معالم الطريق إلى مكة جيدا. فهناك دار الحمراء (ما بين القاهرة والسويس)، عجرود (بالقرب من السويس)، مغارات شعيب (على طول ضفاف البحر الأحمر على مسافة 14 ساعة من العقبة)، الربيع التي كانت محطة على الطريق بين المدينة ومكة، ومنه تبدأ مناسك الحج، أي ارتداء الحجاج لباس الإحرام. بعد ذلك يصف لنا ابن مسايب المناسك التي يجب القيام بها بالبقاع المقدسة في كل من مكة، المدينة، منى، وجبل عرفة وكلها تضرع إلى الله يورده ابن مسايب في شكل تصوير مجازي حيث يقول : "خائلك (يا رب العلى) أريد أن آخذه معي كي يكون ابن مسايب مباركا، يحمله ويحفظه ليوم القبر وأهواله".

لكن على الرغم من أن رحلة ابن مسايب كانت لها غاية خاصة، ألا وهي الحج، لكن ذلك لا يبعدها عن أدب الرحلة. غير أنها جاءت سردا مقتضبا تمحور أساسا على الغرض الديني منها ؛ مما ترك القارئ المتوسط في حاجة إلى المزيد. لكن لا غرابة في ذلك مادام المؤلف قد كان من أشهر شعراء الملحنون لمدينة طالما تشبثت بالتراث الموسيقي الآتي من الأندلس القريبة لاسيما في ظروف مأساوية بعد طرد آخر المسلمين من تلك الديار (1609-1614). لقد أراد المؤلف أن يقدم عملا نافعا بالتقرب إلى الله ونقل الرسالة إلى الأجيال الصاعدة بعد حياة عرفت أوقات السراء والضراء.

يقول الحصار (87 : El-Hassar, 2003) بشأن ابن مسايب : "ما من شك أنه كان ينتمي إلى تلك الدوائر التي عرفت بالذكر لدى الطريقة القادرية التي طبعت تعاليمها التصوف بالجزائر والمغرب قاطبة. إننا نلمس لدى ابن مسايب قدرة فذة على المديح".

إن لابن مسايب فضلا كبيرا في هذا المقام وهو الذي لم يكتف بتخليد نوع أدبي فقط وإنما أعطى له أيضا صيغة جديدة تتفق وتقاليد العاصمة القديمة للمغرب الأوسط. وقد جاءت مغايرة للصيغة التي اعتمدها الورتيلاني. يا له من ثراء أدبي !

### رحلة الورتيلاني

لاشك أن رحلة الورتيلاني تبقى أحسن تعبير على هذا النوع من الأدب سواء بالنسبة إلى الجمهور الجزائري العريض أو كل قارئ أجنبي

يعشق الاطلاع على ما كتبه من غير قومه، بل قارئ مهتم بالأنثربولوجيا الاجتماعية الثقافية بصورة خاصة والتاريخ بصورة عامة بسبب القيمة التي تمثلها تلك المرحلة التاريخية التي تبقى مبهمة إلى حد كبير. من الواضح أن تحديد قيمة هذا العمل الأدبي يبقى مرهونا بمعرفة السياق التاريخي الذي جاء فيه بغض النظر عن بعض المقاطع المأخوذة من مؤلفين آخرين. لذلك وجب الإلحاح على فضل المؤلف من حيث كونه ملاحظا وشاهدا على وقائع دورها بنفسه. وعليه، لن نركز في هذا المقام على الجوانب المتعلقة بالمنهج أو بالنقد الأدبي لاسيما وأنها جوانب نالت قسطها من الدراسة من طرف الحاج صدوق (1951).

### الورتيلاني : ممثل أصيل للشرفاء الدينيين (noblesse religieuse)

سواء نظرنا إليه من باب نسبه، ثقافته، مدى تقواه، أو مكانته الاجتماعية، فإننا نجد الحسين ابن محمد السيد الشريف الورتيلاني (1125-1193هـ / 1710-1779م) رجلا من أصحاب الخطوة الكبيرة في مجتمعه ويتمتع بشهرة واسعة، بل لقد كان محل إجلال لدى الجماهير الشعبية في الجزائر أثناء العقود الأخيرة قبل الغزو الفرنسي للجزائر.

وإذا كان الورتيلاني قد وُلد بقرات الكائنة بجبال قرقور (سطيف)، وكان يزعم أنه من سلالة "الشرفاء" (الدينيين) لكن من دون أن يذكر نسبه، إلا أن لقبه مشتق مباشرة من بني ورتيلان، وهو اللقب الذي كان يُعرف به أولئك السكان الناطقين بالأمازيغية من الذين لم يشملهم

التعريب بصورة تامة وبقوا مقيمين بعيدين عن الحواضر بمناطق بجاية الوعرة، غربي جبال البابور حيث يمر واد متوسط يشكل رافدا من روافد وادي الصومام. غير أن جده الأكبر كان قد استقر بميلة شمالي قسنطينة كما أن هناك صلات قرابة من جهة الأم جعلت له علاقات متينة في كل من زمورة الكائنة جنوبي بني ورتيلان وبجاية، العاصمة القديمة للحماديين (405-547هـ / 1015-1152م)، ما وراء القلعة المعروفة باسم هذه الدولة. أضف إلى ذلك كانت هناك أيضا صلات تجمعها بأولاد مقران، أي أولئك الوجهاء الذين أشرفوا دوما على مصير أهل بجاية انطلاقا من قلعة بني عباس (برج بوعريريج حاليا). وعليه، فقد كانت له علاقات كبيرة بالمدن القديمة المعروفة آنذاك بالجزائر الشرقية.

ومهما يكن من أمر، ينتمي بنو ورتيلان إلى اتحاد القبائل المشكلة لكتامة التي قامت عليها الدولة الفاطمية (انظر : Ch. A. Julien, 1961, II : 52-64 ؛ 62 : F. Dechraoui, 1981) الذين يعود إليهم الفضل في تشييد مدينة القاهرة ابتداء من 358هـ / 969م وتطوير الفسطاط التي بناها المسلمون من قبل على الضفة الشرقية من نهر النيل بالقرب من المدينة اليونانية القبطية لبابل.

ولما كانت الظروف التي أحاطت بالورتيلايين مواتية له وكان شديد التشبث بأصوله المرابطية (أي الشريفة)، فقد حرص على تمثيل التراث التقليدي، بل وسعى لتمجيده باعتباره نفسه واحدا من الصفوة المثقفة.

هذه الصفوة التي استطاعت - على الرغم مما اعترها آنذاك من جهود لقرون طويلة وشهدت ما شهدت من ويلات بعد طرد المسلمين من الأندلس، بالإضافة إلى العزلة التي كانت تعرفها المنطقة - أن تنقل إلى الأجيال الصاعدة التقاليد العربية الإسلامية، حتى وإن كان ذلك بطريقة كان الزمان قد تجاوزها. ثم إن أعماله، خارج الرحلة، مقصورة على جملة من المسائل الدينية والفقهية<sup>1</sup> مقلدا فيها سابقيه الذين عاشوا عصر الانحطاط لا عصر الازدهار الذي عرفه الفاطميون الذين "ظلت آدابهم مزدهرة بالمنطقة الشرقية من بلاد البربر" كما يقول ه. ر. إدريس (H. R. Idris, 1962 : 775).

على أية حال، حتى وإن ظل الورتيلاني متمسكا بالتقاليد القديمة إلا أنه استطاع أن يواصل على رأس زاويته مسيرة طويلة وغنية في تكوين إشارات كثيرة في كل من القضاء وممارسة الشعائر الدينية. أكثر من ذلك، لقد شعر بالحاجة الملحة إلى ربط صلته من جديد بالآداب القديمة عندما

---

1. يمكن أن نميز في ما جاء في ترجمة سيرته التي كتبها الحاج صدوق (Hadj- Sadok, 1951 : 325) ما يلي :

- شرح يخلص قدسية سيدي عبد الرحمان الأخضري ؛
- شرح يخلص الوسطى للإمام السنوسي ؛
- شرح يخلص مقدمة لتفسير الصغرى للإمام السنوسي ؛
- شرح هامشي، الحاشية، حول تعليق السكتاني المراسي على تفسير السنوسي ؛
- شرح يخلص محصل المقاصد للإمام أبو العباس أحمد بن زكري التلمساني؛ لم ينهه ؛
- شرح هامشي حول التفسير المختضب الذي ألفه الخرشني ؛
- إضافة (تشطير) إلى بردة البصري وقصيدته التي يستهلها بـ : "اللهم بارك في المصطفى..." ؛
- رسالة حول كلمة قالها ولي صالح : "لقد بلغت حدا لم يبلغه الرسل" ؛
- رسالة حول كلمة قالها الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف الملياني : "لقد نسجت برنسا من الماء وغطيت به من هو ما بين الأرض والسماء..." .

ألف رحلته بعنوان : "نزهة الأنظار في فضائل علم التاريخ والأخبار"، ونشرها الأستاذ محمد ابن شنب سنة 1908.

مما تقدم، ينبغي أن نلتزم جانب الحيطة في ما يخص أي حكم متسرع فيه كما يفعل ناقده الحاج صدوق (322 : 1951, Hadj-Sadok) حين يقول : "على الرغم من أصله العربي، كان الورتيلاني، في الحقيقة، نموذجاً لذلك الرجل الجبلي الذي ظل متمسكاً بخيرات الدنيا".

وبالفعل، في هذا النوع الأدبي المحدد، ينبغي، قبل كل شيء، التركيز على محاور الاهتمام لدى الورتيلاني بحيث يتم، على وجه الخصوص، إبراز نوعية الملاحظة وحيوية السرد عنده، وغير ذلك من التفاصيل التي تجعل هذا السرد في غاية الثراء. على كل، فإن سرد الورتيلاني جذاب على أكثر من صعيد حيث يبيدي صاحبه في ذكره للمحطات المختلفة التي مر بها مدى قدرته على التنظيم والتسيير قل نظيرها، وحرصه على مصلحة مرافقيه قبل أي شيء آخر على الرغم من كون بعض هذه المحطات مخوفة بالمخاطر.

لقد انطلقت الرحلة بقافلة قوامها 10 آلاف رجل، والتي واصلت سيرها من دون انقطاع تقريبا مدة سنتين متتاليتين (ذهابا وإيابا). وبصرف النظر عما تضمنه السرد من مقاطع ومعطيات مأخوذة عن الناصري ومن بعض المؤرخين ومذكورة بأمانة، فإنه يبقى مصدرا نفيسا لمعلومات متنوعة مرفقة في بعض الأحيان بملاحظات وجيهة وقعت للمؤلف أثناء السفر ونقلها بكل أمانة هي أيضا.

وحرصا منا على التزام الموضوعية، وحتى نبين مدى إسهام هذه الرحلة في تاريخ واحدة من المراحل الأقل وضوحا إلى حد الآن، سيقصر حديثنا على النقاط الإيجابية في الرحلة والتي سيكون سياقها المراحل التي قطعها صاحبها في ربوع الجزء الشرقي من البلاد. نفس الشيء بالنسبة إلى تلك الملاحظات والمعطيات المذكورة بالنسبة إلى المحطات الواقعة خارج الجزائر.